



المعراج

18 سفراء الهدى

محاضرة في الأردن

2024-02-12

عمان

الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد: ما زلنا في الحديث عن الإسراء والمعراج، وقد تكلمنا في اللقاء السابق عن إسرائه صلى الله عليه وسلم، وعن مُفتتح سورة الإسراء وما فيها من دروسٍ وعِبَر، ومن ربطٍ بواقعٍ أليمٍ نعيشه اليوم، لكننا نستشرف من خلاله وعد الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا جُلُودَ الدَّيَابِرِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (5)

(سورة الإسراء)

وتواعدنا أن نتحدث عن معراجه صلى الله عليه وسلم في هذا اللقاء، والمعراج أئها الكرام هو عروج النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء السابعة، وقد ذكره الله تعالى في كتابه في مُفتتح سورة النجم فقال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا صَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2)

(سورة النجم)

يُقيِّم الله تعالى بالنجم، والنجم هي تلك النجوم التي نراها في السماء، المُتألِّقة التي يهتدي بها الناس قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)

(سورة النحل)

النبي صلى الله عليه وسلم هدايته مُستمرة لا تنطفئ:

فالنجوم يهتدي بها السائرون ويعرفون بها طُرقاتهم (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) النَّجْمُ هَوَى، فيسقط، يغيب، فإذا سقط وغاب لم يعد هناك هدايةً به، فالهداية به متوقفةً على سطوعه، فإذا هوى، غاب، سقط، فالتاس لن يهتدوا به، جواب القسم: (مَا صَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَى)، أمَّا الهداية برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها لا تغيب أبداً، لأنَّ الهداية برسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنطفئ ولا ينفضي نورها، هذه هي العلاقة بين القسم وجواب القسم، (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا صَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَى (2)) النبي صلى الله عليه وسلم هدايته مُستمرة، الهداية بالنجوم مؤقتة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم الالتهداء بمنهجه إلى قيام الساعة، ونحن اليوم بعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة، نهتدي بهديه صلى الله عليه وسلم، فهو نجمٌ لا يغيب ولا يهوي، صلى الله عليه وسلم.

النبي صلى الله عليه وسلم ما حاد عن طريق الحقِّ، ولم يخرج عن سبيل الرشاد:

(مَا صَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَى)، يُسمِّيهم صاحبهم ليُذكِّرهم بالصدق الأمين، فهو صاحبكم، الذي تعرفونه، وتعرفون صدقه وأمانته، وعفافه، ونسبه، فاليوم لما جاءكم من هذه الرحلة وحَدَّثكم عنها، ثمارونه وتجادلونه فيها! ألا تعرفونه؟! إني أعلمكم، اليوم لو كان لك صاحبٌ تُحبُّه وتثق به، وأخبرك خبراً، تُصدِّقه فوراً، لكن لو جاءك شخصٌ لا تعرفه أبداً، ولا تعرف ماضيه، وأخبرك خبراً، فإنك تتردد في قبوله حتى تتوثق من هذا الرجل الذي يُخبرك، فذلك قال صاحبكم هنا، يُذكِّرهم بأنَّ هذا الرجل قد صحبتموه في مكة، وتعرفون صدقه وأمانته، بل قد سمينموه بالصدق الأمين، فكيف تتهمونه الآن بالضللال؟! وبالغواية؟ حاشاه.

الضللال هو الحياذ عن الطريق المستقيم، ضلَّ الطريق أي أخذ طريقاً غير صحيح، والغواية هي ما يكون في داخل النفس بأن يعتقد الإنسان اعتقاداً فاسداً، العقيدة الفاسدة غواية، الطريق واضح، ثم ذهب عنه، ضلَّ عنه، ذهب في طريقٍ آخر، والغواية أن يعتقد الإنسان اعتقاداً فاسداً، (مَا صَلَّ صَاحِبِكُمْ وَمَا عَوَى)، فهو صلى الله عليه وسلم ما حاد عن طريق الحقِّ، وما خرج عن سبيل الرشاد، فما يُخبركم به حقٌّ من الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)

(سورة النجم)

الناس يتكلمون، ينطقون، لكن هذا النطق كثيراً ما يكون عن الهوى، يعني ينطق عن هوى في نفسه، يعني حتى أوصح الموضوع بقصة طريفة، شيخنا الشيخ راتب حفظه الله، قال مرة: والله ذهبت لشراء ستائر لبيني، أخذت بيت جديد وأراد أن يأخذ ستائر له، فأعطاه صاحب المحل أعطاه قاعدة، قال له: كم عرض الحائط عندك؟ قال له: متر مثلاً، قال له: القاعدة عندنا متر ضرب اثنا، متران ونضيف له نصف، يعني مترين ونصف، يعني إذا الحائط متر يجب أن تأخذ الستارة مترين ونصف حتى تأتي بشكل جميل، أتيق، فيعد أن بحث في الأقمشة الموجودة أعجبه قماش، فلما قاسه له إذا به ينقص عن القاعدة التي وضعها، فأنشأ قاعدةً جديدةً فوراً، قال له: نوع هذا القماش إذا كان مفروداً سيكون أجمل، فهذا نطق عن الهوى، هذا ليس حقاً الذي قاله، لكن مصلحته أن يبيع، فعبر القاعدة خلال دقائق إلى قاعدة جديدة تناسب البيع، فهذا نطق عن الهوى، عن رغبة في داخل النفس، كثيراً ما ينطق الناس عن الهوى.

يعني مثلاً سترت شائعة في البلد بأنَّ الدولة تعتمز تخفيض الجمارك على السيارات خمسون بالمئة، إذاً ستخفص أسعار السيارات، هناك شخصان جالسان، أحدهما قد اشترى سيارة قبل أيام، يعني أخذ بالسعر العالي فمباشرةً ينطق عن الهوى من غير أن يشعر، بالعقل الباطن، ويقول لك: غير صحيح مستحيل، باب رزق للدولة تُخفصه مستحيل! والثاني يعتمز أن يشتري سيارة في الشهر القادم، ولم يشتري بعد يقول لك: والله سمعت بذلك غالباً سيُخفصون، فالإنسان لم ينطقاً عن حقيقة واقعية وإنما نطقاً عن الهوى، والإنسان كلما ارتقى يفكر في كلامه، طبعاً لا أتكلّم عن هذه القضية، هذا عقل باطن، من غير أن يشعر الإنسان، لكن بشكل عام إذا أراد أن يحلَّ خصومة، يعني إذا جاءت ابنته وعندها إشكال مع زوجها، فإنّه لا ينبغ أن ينطق عن الهوى، لأنها ابنته.

{ أَمَرَنِي خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ الصَّالِحِينَ، وَالدُّبُّوِّ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ قَوْفِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّجِمَ وَإِنْ أَدْبَرْتُ، وَأَمَرَنِي أَلَّا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ، وَإِنْ كَانَ مُرًّا }
 وَأَمَرَنِي أَلَّا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكْثِرَ مِنْ قَوْلِي: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ. {
(أخرجه أحمد وابن حبان)

النبي صلى الله عليه وسلم ما نطق عن الهوى أبداً:

فالإِنسان كلُّما ارتقى يكون موضوعياً، يعني ينطق بالحقيقة ولو كان الحقُّ عليه، فيلزِمه بشيء يقول لا والله أنا أخطأت، هذا يكون أبعد عن النطق بالهوى، رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نطق عن الهوى أبداً، ما تكلم كلمة، كان يمزح ولا يمزح إلا حقاً، يعني في المزاح لا يمزح مزاح باطل، يمزح حقاً، فصلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، قال: (إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (إلا هذا حصر، يعني ما هو إلا وحْيٌ يوحى، يعني كلامه وحْيٌ، لذلك قال العلماء الوحي وحيان، وحْيٌ متلَوٌّ، وهو ما نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم عن جبريل مباشرة وهو كتاب الله وكلام الله، تماماً كما أخبره جبريل به، ووحْيٌ غير متلَوٌّ، وهو كلامه صلى الله عليه وسلم:

{ من عَشْنَا فليس مِنَّا }

(أخرجه الترمذي والطبراني وابن ماجه)

هذا ليس وحياً متلَوّاً، لم يأت هكذا من جبريل، لكنه وحْيٌ غير متلَوٌّ، لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قاله، فمعناه وحْيٌ من الله، ولفظه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، (وما ينطق عن الهوى (3) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)) الوحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما كلام البشر، يأتيه الباطل لأنَّه كثيراً ما يكون بخطأ مقصود أو غير مقصود، عن هوى نفس، أو عن رغبة في الداخل من غير أن يشعر بها الإنسان.

صفات جبريل عليه السلام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)

(سورة النجم)

شديد القوى هو جبريل عليه السلام، والقوى جمع قوَّة، والمَلَكُ الموكَّلُ بنقل الوحي يجب أن يكون شديد القوى، قوَّة في الذكاء، في الانتباه، في الملاحظة، في النقل، حتى لا يُخطئ في النقل، يعني الملائكة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

(سورة التحريم)

شديد القوى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ذُو مِرَّةٍ قَاسِتَوِي (6)

(سورة النجم)

(ذُو مِرَّةٍ) يعني ذو مطهر حسن، فلان ذُو مِرَّةٍ يعني ذو مطهر حسن، (قَاسِتَوِي) يعني ظهر على صورته الحقيقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، لَمَّا كان ينزل إلى الأرض، كان يأتي أحياناً على شكل رَجُلٍ، لَمَّا جاءه بحديث علم الدين المعروف، الإيمان، أخبرني عن الإسلام، عن الإيمان، عن الإحسان، عن الساعة، جاءه على شكل رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه مِمَّنْ أحد، والصحابة الكرام رضوان ربي عليهم طَوَّه رجلاً، ما عرفوه أنه مَلَكٌ حتى انصرف، فسألوه من هذا؟ قال: ذاك جبريل أتاكم يُعلمكم دينكم.

{ بينما نحن عند رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتِ يومٍ إذ طلع علينا رجلٌ شديداً بياضِ الثيابِ شديداً سوادِ الشعرِ ، لا تَرى عليه أثرَ السفرِ ولا نعرُفُهُ ، حتَّى جلسَ إلى رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأَسندَ ركبتهِ إلى ركبتهِ ووضعَ كَفَّيه على فخذهِ ثمَّ قالَ : يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْني عن الإسلامِ ، ما الإسلامُ ؟ قالَ : أنْ تشهَدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ وتُقيمَ الصلاةَ وتؤتيَ الزكاةَ وتصومَ رمضانَ وتحجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلاً . قالَ : صدقتَ ؛ قالَ عمرُ : فعَجِبنا له يسألهُ ويصدِّقه . فقالَ : يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْني عن الإيمانِ ما الإيمانُ ؟ قالَ : الإيمانُ أنْ تؤمِنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسولهِ واليومِ الآخرِ والقدرِ كلِّه خيرَه وشَرُّه . قالَ : صدقتَ . قالَ : فأخْبِرْني عن الإحسانِ ما الإحسانُ ؟ قالَ : أنْ تعبدَ اللهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . فقالَ : أَخْبِرْني عن الساعةِ متى الساعةُ ؟ قالَ : ما المسئولُ عنها بأعلمَ من السائلِ . فقالَ : أَخْبِرْني عن أماراتها . قالَ : أنْ تَلدَ الأمةُ ربَّتها وأنْ تَرى الحفاةَ العراةَ العالةَ رعاءَ الشَّاءِ يتطاولونَ في البناءِ ، قالَ : نَمَّ انطلقَ الرجلُ ، قالَ عمرُ : فليثبُ ثلاثاً ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يا عمرُ أتدري من السائلُ ؟ قلتُ : اللهُ ورسولُه أعلمُ .

<weight:bold> قالَ : فإنه جبريلُ عليه السلامُ أتاكم يعلمكم دينكم </weight:bold>

(أخرجه مسلم)

لكن في المعراج، استوى بمعنى أنه رآه على صورته الحقيقية، بأجنحته، ومئات الأجنحة، ستمائة جناح كما ورد في الأحاديث، (ذُو مِرَّةٍ قَاسَتْوَى).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى (7)

(سورة النجم)

هنا اختلف المفسرون، منهم من قال: (وهو) أي رسول الله، وجمهور المفسرين قالوا: هو جبريل عليه السلام، والمعنيان يحتملان، يعني إن قلنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ الأفق الأعلى عند الله تعالى، صحيح، وكذلك هو جبريل عليه السلام،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8)

(سورة النجم)

إما أن رسول الله اقترب، أو أن جبريل عليه السلام دنا، (فَتَدَلَّى) اقترب أكثر، يعني أنت تجلس تحت الدالية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَطُوفُهَا دَائِبَةٌ (23)

(سورة الحاقة)

تجلس تحت الدالية، يسمونها دالية، تدنو منك قطف الأعناب ثم يتدلى، دالية يتدلى إليك، (دَنَا فَتَدَلَّى) أي اقترب وازداد قرباً في هذه الليلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9)

(سورة النجم)

يعني حدود ارتفاع قوسين، كانت العرب تتكلم بالقوسين، يعني صلاة الصُّحى عند ارتفاع الشمس في السماء بمقدار قوسين، (قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ) يعني بمقدار قوسين أو أقل حتى من قوسين، ما هو مقدار القوس؟

الله تعالى أوحى إلى نبيه في السماء السابعة وهو في أعلى مقام العبودية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (10)

(سورة النجم)

هناك في هذه النقطة القريبة جداً جداً من جلال الله تعالى، ومن وذاة العليّة جلّ جلاله، أوحى الله تعالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى، وهنا نلتقي من جديد مع قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِي اشْتَرَىٰ بِعَبْدِهِ لِيَلَّا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا
حَوْلَهُ لِنُرِيَنَّهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

(سورة الإسراء)

وهو في أعلى مقام كان بالعبودية، وهو الآن في أعلى مرتبة في السماء السابعة قال: (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ) ولم يُقَلِّ إلى رسوله، مع أنه قد يُنْوِهم من السياق مادام وحي، فإنَّ الوحي يكون إلى الرُّسُل، لكن يريد أن يُخبرك جلّ جلاله، عن عبوديته صلى الله عليه وسلم وهو في هذا المقام العالي، (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ).

النبى صلى الله عليه وسلم رأى بقلبه ورأى يبصره آيات ربه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (11)

(سورة النجم)

يعني ما كَذَّبَ قلب محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه يبصره، أحياناً الإنسان يرى يبصره ويكذب بقلبه، يرى الشيء يبصره لكن يُكذِّبه بداخله، يقول لك: أنا لا أصدِّق، يقول لك: هل فلان يفعلها، فيكذب الخبر بقلبه، لكن هنا توافق كامل قال: (مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ) فقد رأى يبصره ورأى بقلبه، نحن عندنا رؤية قلبية، ورؤية بصرية، رأى البصرية تأخذ مفعول به واحد، رأيت القمر هذه رأى البصرية، رأيت الله أكبر كل شيء، تحتاج مفعول به ثاني، أو رأيت العلم، العلم لا يُرى، نافعاً، فهذه رأى القلب، فهناك رأى البصر، ورأى القلب، فعندما يتوافق القلب مع البصر هذه أعلى درجات الرؤية، قال: (مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفْتَمَارُوتُهُ عَلَيَّ مَا بَرَى (12)

(سورة النجم)

مريت الدابة، يعني حلبتها حتى آخر شيء ممكن، فالمرء هو حالة جدال تشتد بشكل شديد جداً، يعني زائدة عن الحد المعقول، وراء، والنبي صلى الله عليه وسلم قال:

{ أنا زعيم بيت في رص الجنة لمن ترك المرء وإن كان مُجفًا، وبيت في وسط الجنة

لن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلفه. }

(صحيح أبي داوود)

يعني يتناقش مع زميله في قضية، ووصلت إلى حد المرء، يعني جدال عقيم لا يوجد نتيجة، فقال له: كما تحب، ليست قضية عقيدة دينية، يعني مثلاً أسعار الدولار ترتفع وتنخفض،
(لن ترك المرء وإن كان مُجفًا) يعني يعلم أن الحق معه.

(أفتماروته على ما برى) بعد كل ذلك تشتدون في جداله في شيء رآه وما كذبه فواده، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13)

(سورة النجم)

أي رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل، (نزلة أخرى) أي مرة أخرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14)

(سورة النجم)

رآه مرتين في هذه الليلة، الثانية عند سيدة المنتهى، والسيدة شجرة في السماء السابعة، وهذه الشجرة كما وصفها النبي صلى الله عليه وسلم، ثمارها قلال هجر، يعني الأوعية الكبيرة التي يطهون بها في هجر، كقلال هجر، وأوراقها أذان الفيلة، حجمها كأذان الفيلة، هذه الشجرة التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم، والتي هي أدنى ما تكون من العرش في السماء السابعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15)

(سورة النجم)

الجنة التي أعدها الله مأوى لعباده المتقين هناك في السماء السابعة، عند سيدة المنتهى، أقصى ما يصله إنسان قبل بلوغ عرش الرحمن جل جلاله، (عندها جنة المأوى)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16)

(سورة النجم)

يعني يغشاها من الله عز وجل شيء عظيم يصعب وصفه، (إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى) ما قال لك، يعني يغشاها من جلال الله، من هيبه الله، من رحمة الله، (إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى).

النبى صلى الله عليه وسلم كان مُتأدباً مع الله فما زاغ بصره ولم يطغى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17)

(سورة النجم)

أحياناً بصر الإنسان يزغ، يَمَنَّةً أو يَسْرَةً، يعني :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

(سورة النجم)

يعلم خائنة الأعين جَلَّ جلاله، فيزيغ البصر، فينوهم أحياناً شيء رآه وهو لم يراه، وقد يطغى البصر بأن يتجاوز حدّه، يطغى البصر، إذا إنسان جلس في بيت محترم، لا ينبغي أن يطغى نظره، فينظر إلى مكان لا ينبغي النظر إليه، لذلك من آداب المجالس أن يجلس الضيف حيث يأمره المضيف، حتى يكون بمكان لا يكشف أهله، وحتى الصلاة، الرجل لا يُؤمُّ في بيته، إلا أن يأذن، فالإنسان يعرف كيف يقف وهو أدرى بيته، فالبصير لا ينبغي أن يطغى، لكن قد يطغى بصر الإنسان، يعني يتجاوز حدّه، النبي صلى الله عليه وسلم، ما طغى بصره في هذا المقام، وإنما له حدوده، وما زاغ لا يَمَنَّةً ولا يَسْرَةً، كان مُتأدباً مع الله جَلَّ جلاله فهو عبد الله، قال: (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

الآيات الكبرى التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم في معراجة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)

(سورة النجم)

هكذا وصفها الله، آيات، علامات دالّة على الله تعالى، رآها النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الرحلة، هذه الآيات، والآيات الكبرى هي من الغيب الذي لم نراه، ولن نراه، لكننا نحن المؤمنون نؤمن به إخباراً، لأنّ الله تعالى أخبرنا به، ولأنّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا ببعض تفاصيله، فنؤمن به، ماذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى؟ طبعاً تعلمون أنه التقى بالأنبياء في كل سماء، بدءاً من آدم عليه السلام إلى أن بلغ السماء السابعة، والتقى بإبراهيم الخليل عليه صلاة ربي وسلامه، وعلى جميع الأنبياء، إدريس ويحيى وموسى ويوشف، في كل سماء كان يلتقي بنبي من أنبياء الله ويُقِّف له، فيستقبله أهلاً بالأخ، أهلاً بآبائنا الخالة، أهلاً بالولد كما قال سيدنا آدم، بالابن الصالح، بالنبي الصالح، إلى آخره...

فهذه من آيات الله التي رآها في السماوات، ومن آيات الله التي رآها أنه رأى الجنة والنار، هل رآهما بمعنى أنهما مخلوقتان ورآهما؟ ربما هذا كلام بعض أهل العلم، أو أنه رآهما بإراءة الله له للمستقبل، لأنه نحن الماضي والحاضر والمستقبل أزماناً تحكّمتنا، أما عند الله فالزمن مُعطل، هو عطل له الزمن كله، فقضى الرحلة كلها وعاد وفرأه دافئ، فالزمن كله مُعطل الآن، خلق الزمان مسحوب، لأنّ الرحلة خلاف العادات، غير مألوفة، فلعلّ الله عز وجل أطلعه على ما سيكون، هذا شيء ممكن، أو أنهما موجودتان هذا أمره إلى الله، غيب، لكنه رأى الجنة والنار.

حتى قال بعض السلف الصالح: "لقد رأيت الجنة والنار، قالوا له: كيف رأيتهما؟! قال: لقد رأيتهما بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورؤيتي لهما بعيني رسول الله اصدق عندي من رؤيتي لهما بعيني، لأن بصري قد يزيع وقد يطغى أما بصره صلى الله عليه وسلم (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)".

فيح الآن نرى الجنة والنار برؤية رسول الله لهما، ونؤمن بوجودهما، بإخبار الله لنا وإخبار رسول الله لنا، فأصبحت رؤيتنا له ما ليست رؤية غيبية فحسب، إخبارية، وإنما بصرية لأن من نثق به أعظم ثقة، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أراه الله الجنة والنار عياناً، فرأى الجنة وأخبره موسى عليه السلام فقال له: <

{ لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال يا محمد أفرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر }

(أخرجه الترمذي والطبراني)

هذه غراس الجنة، فمن أراد أن يغرس له غرساً في الجنة، فليكثر من هذه التسيحات، التي نقولها عقب كل صلاة، وقبل النوم، وفي أذكار الصباح والمساء، والنبى صلى الله عليه وسلم رأى الجنة ونعيمها، ورأى نهر الكوثر الذي أعطاه الله تعالى لنبىه، وقيعانه اللؤلؤ، فعره اللؤلؤ، وترتبه المسك، ورأى صلى الله عليه وسلم في المقابل النار، فرأى أقواماً لهم أظفار من نحاس، يخرجون بها وجوههم وصدورهم والعياذ بالله، فلما سأل جبريل عن ذلك قال: **هؤلاء يأكلون لحوم الناس ويخوضون في أعراضهم**، يخوض في أعراض الناس، يتكلم على عرض فلانة وفلان، ويخوض في الأعراض والعياذ بالله، ويأكل لحم أخيه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا
(سورة الحجرات) (12)

(سورة الحجرات)

ورأى آكلى الربا وما يفعلون بأنفسهم، ورأى صلى الله عليه وسلم أصنافاً من الناس يُعذبون في النار بأفعالهم، وهذا من آيات الله الكبرى، ورأى قوماً تُقطع ألسنتهم وتُفرض بنفاهم، والعياذ بالله، فسأل جبريل عليه السلام عنهم فقال له، والحديث مُخيف جداً قال: **هؤلاء حُطباء أمك من أهل الدنيا، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَثْلَوْنَ الْكِتَابَ أَقَلًا تَعْقِلُونَ (44)

(سورة البقرة)

{ مررت ليلة أسري بي بأقوامٍ تُفرضُ بنفاهم بمقاربتهم من نارٍ، فُلْتُ : من هؤلاء يا جبريلُ ؟ قال : حُطباءُ أمك الذين يقولون ما لا يفعلون

ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به }

(أخرجه أحمد والبرار)

حُطباء! يعتلون المنابر، ويأمرون الناس بالبر ثم هم من أهل الدنيا يريدوا أن يبيعوا دينهم بقرض من الدنيا قليل، يُرضوا فلاناً أو فلاناً من أهل الدنيا، فيلوون ألسنتهم بالكتاب والعياذ بالله، ويأمرون الناس بالبر، ثم إذا كان موقفٌ يجب أن يقفوا منه الموقف الشرعى الصحيح، إذا بهم ينسون أنفسهم وينساقون وراء شهواتهم، أو وراء ما يُحقق لهم الرفعة في الدنيا على حساب دينهم والعياذ بالله، فهذا كله من ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم، وجاءه جبريل في هذه الرحلة بثلاث أواني مملوءة، واحدٌ مُلئ خمرًا، وواحدٌ مُلئ عسلًا، وواحدٌ مُلئ لبنًا، فاختار النبي اللبن، فقال له: قد أصبت الفطرة، الفطرة التي فطر الله الناس عليها بيبضاء نقية كاللبن، وطعام طيب حلال، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم، ما أكل طعاماً إلا حمد الله عليه، إلا اللبن كان يقول اللهم زدنا منه، يسأل الله الزيادة من اللبن، فهو طعام الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وفي تلك الليلة شمَّ النبي صلى الله عليه وسلم رائحةً لم يشم مثلها قط، رائحة جميلة جداً، فقال: يا جبريل رائحة من هذه؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون، قال له من هذه؟ وما شأنها؟ حدثني عنها، قال له: كانت تُمشط شعر بنت فرعون، الماشطة وكانت مؤمنة، فسقط المدرا من يدها، يعني الممشط، فنزلت لتأخذه فقالت: بسم الله، فقالت لها بنت فرعون أبي؟ هل تريد أن تأخذ المشط باسم أبي، سمعت بسم الله، قالت لها: لا، في قصر فرعون! قالت لها: بل ربِّي وربُّكِ وربُّ أبيكِ الله، قالت: ألك ربُّ سوى أبي، قالت لها: نعم، ربِّي وربُّكِ الله، فأخبرت أباها، فأمر ببقرية من نحاس فحُميت، ووضع فيها الزيت بعلغي، ثم جاء بها وأبناؤها، ليُلقيها في الزيت، فسألها من ربُّكِ؟ فقالت: ربِّي وربُّكِ الله، فأراد أن يُلقيها، فقالت له: إني لي عندك حاجة، إذا مُتُّ أنا وأولادي فاجمع عظامي وعظامهم في قبر واحد، فقال لها: هذا لك علينا من الحقِّ، نُعطيك إياه، هذا يُطلب الأخير، فلمَّا بلغ الرضيع قبل أن يُلقيها وقد ألقى أولادها، وبلغ الرضيع، يقول جبريل: فكأنها تقاعست، عند الرضيع، الرضيع مُتعلق بأمه، فقال الرضيع: مَهْ كَفَّ، قال: انتبهي يا أمَّاه فأنتِ على حقِّ، فإنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقواها، فألقاها في الزيت المغلي، فشَمَّ النبي رائحة المسك منها في ليلة المعراج.

وهذه العبارة إنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، تُهدبها اليوم لإخواننا في غرَّة، في فلسطين، الذين يجدون ما يجدون من عذاب الدنيا، تُهدبها لكل إنسان يجد اليوم من ضيق العيش، ووجد ما يجده من تكالب الناس عليه، وقد تركه الأخ والصديق والحبیب، والناس انشغلوا عنه باحتفالاتهم وبلهوهم وبيدهم عنه، نقول له: إنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهذا لا يُعفي أحداً من تقصيره، ولكنه بشاره لهم، لأنَّ الله عز وجل لا تساوي الدنيا عنده جناح بعوضة، ولو كانت تساوي عنده جناح بعوضة، ما سقى كافر منها شربة ماء

{ لو كانت الدُّنيا تعدُّ عند الله جناح بعوضٍ ما سقى كافرًا منها شربة ماء } {

(أخرجه الترمذي وابن ماجه)

قال من آمن منهم، قال ومن كفر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ يَاللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ
إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسِّنُّ الصِّبْرَ (126)

(سورة البقرة)

يبينا إبراهيم رأى أنَّ الرزق نريده فقط للمؤمنين، فأجابه الله قال: (قَالَ وَمَنْ كَفَرَ) لكن ومن كفر (فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا) يأخذ الدنيا (ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسِّنُّ الصِّبْرَ).

يوم القيامة عندما يُعَمَّس أشقى وأتس أهل الأرض، غمسة واحدة في الجنة، وهو أشدُّ أهل الأرض بؤساً، فَيُعَمَّس غمسة في الجنة فيقول: لم أَر بؤساً قط! ما رأيت بؤساً قط، ينسى بؤس الدنيا كلها، نومه في العراء، وتحت القصف، وقَد من قَد من أحيائه، والجرح، والمرض، والشعور بالوحدة مع تخلي الناس عنه، كل هذه ينساها بغمسة في الجنة، وفي المقابل يؤتى بأنعم أهل الأرض، يعني الذين عاشوا في القصور، وأكلوا من أطياب الطعام، وناموا على السُّرر الوثيرة، ووجدوا من الدنيا ما وجدوا، يؤتى بأنعم أهل الأرض فَيُعَمَّس غمسة في النار، ممن استحق النار طبعاً، فيقول: لم أَر نعيماً قط! غمسة واحدة تُنسى الأم الدنيا كلها، وغمسة واحدة في المقابل تُنسى أفراس الدنيا كلها.

فالدنيا لا تساوي عند الله تعالى شيئاً، هذه حقيقة، لأنها زمنٌ يسير في مقابل الأبد، وما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المحيط إذا عُمس في مياه البحر، فليُنظر أحذكم بما يرجع.

{ والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعلُ أحذكم إصبَعه في اليمِّ ، فليُنظر بم يرجع } {

(صحيح مسلم)

أحضر إبرة واعمَّسها بالمحيط الأطلسي وارفعتها، هذه الدنيا من الآخرة، فقال لها هذا الرضيع بأ أمَّاه: عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، هذه الكلمة والله، وحدها بلسم لصدور كل إنسان يُعاني في الدنيا ما يُعانيه، لأنَّ ما ينتظره عند الله عز وجل أعظم بكثير، وفي المقابل هي تهديدٌ ووعدٌ لكل من تخلى وترك دينه وتنازل عن مبداه، وعن قيمه، وعن قضيته، بأنَّ عذاب الآخرة عظيم، ونعيم الدنيا لا يساوي شيئاً أمام نعيم الآخرة.

فأسأل الله تعالى في ذكرى الإسراء والمعراج، أن يجعلنا دائماً بأرواحٍ تعرج إليه، العروج هو الصعود، والصلاة معراج المؤمن، والصلاة فُرِضت في المعراج، خمسين صلاة، ثم أمضى الله فريضته خمس صلوات، وخُفِّف على عباده فجعلها بأجر خمسين، وما فرضها خمسين ثم خَفَّفها إلى خمس، إلا لِيُبَيِّنَ هَذَا المعنى رَحمةً بنا، بأنَّ الصلوات ضمن حدود الوسع والطاقة، وأنَّ الأجر أعظم بكثير من الفعل، فجعل الخمس بخمسين جلَّ جلاله رَحمةً منه، ففُرِضت الصلاة في المعراج، كل الفرائض فُرِضت بوحى يوحى من الله، إلا المعراج أتى الله بنبيه إليه وفرض عليه الصلاة.

يعني ملك من ملوك الأرض يُرسِل رسائل للوزير إذا يوجد أمرٌ مهم، ولله المثل الأعلى، يقول له تعال إلي، تعال إلى القصر، إذا أراد أن يُخبره بشيءٍ مهم، فالمليك جلَّ جلاله ملك الملوك في الصلاة قال له: تعال إلي، اعرج إلي، لأنَّ الصلاة هي معراج أُمَّتِكَ من بعدك إلي، فإذا أردت أن تعرج إلى الله فعليكم بالصلاة، فهي معراج المؤمن إلى ربِّ الأرض والسموات، ففي ذكرى المعراج نتعلم دائماً أن نحرض على صلواتنا، وعلى أدائها، وعلى أدائها في جماعات ما أمكن، وعلى أن نُتقنها في أدائها وفي خشوعها، لعلَّ الله عز وجل يرفق من خلال الصلاة بنا إليه جلَّ جلاله، فالصلاة معراج المؤمن، هذا والله تعالى أجل وأعظم، والحمد لله ربِّ العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.